المحاضرة السابعة

الاسلوب (١)

مر بكم وانا الخص لكم مذهب « سانتبوف » في النقد ان الناقد ينبغي له ان يتجرد من نفسه في نقده فمن شرائط عبقرية النقد ان لايكون للناقد فن وان لايكون له اسلوب فاذا كان له شيء من ذلك صرف باله الى العناية باسلوبه فظهرت آثار فنه على الكلام الذي ينقده . هذا الطراز من النقد اسمه : النقد الموضوعي وصاحب هذا المذهب يقتصر على الافاضة في الموضوع نفسه دون التعرض لاشياء لا تتعلق بالموضوع فكأنه يحاول ان ينسلخ من عاطفته في نقده وقد اعترض على هذا المذهب اناتول فرانس فقال :

« النقد انما هو نمط من الروايات على نحو الفلسفة والتاريخ تزاوله العقول الفطنة الطلعة وكل رواية اذا نحن فهمناها كل الفهم ان هي الا ترجمة المؤلف بقلمه فالناقد الحاذق هو الذي يفصح عن خوالج نفسه في تضاعيف روائع المؤلفات ، لا يوجد نقد موضوعي كما انه لا يوجد فن موضوعي وكل الذين يتبجحون بانهم يضعون في مؤلفاتهم شيئاً غير روحهم فهم واهمون فالحقيقة ان المرء لا يخرج من باطنه ابداً وهذا من اكبر شقاء البشرية اننا قيد انفسنا فكأننا في محبس دائم فالذي يليق بنا عمله انما هو الاعتراف بهذه الحالة الفظيعة والاقرار باننا نتكلم بكلام على انفسنا كل ما عجزنا عن السكوت فاذا كان الناقد حراً وجب عليه ان يقول : ساداتي . اني اريد ان اتكلم بكلام على نفسي في اثناء كلامي على « شكسبير » او « راسين » او « باسكال » او « غيت » فان في ذلك فرصة حسنة .

وهذا النوع من النقد اسمه . النقد الذاتي وصاحب هذا المذهب لا يستطيع ان يتملص من الاعراب عن لواعج صدره في خلال كلامه على مؤلف من المؤلفين .

مالنا ولهذا كله انما بغيتي الكلام على الاسلوب من حيث هو اسلوب دون الاندفاع

---

(١) سلسلة المحاضرات التي القاها في كلية الآداب في دمشق الاستاذ شفيق بك جبري عضو المجمع العلمي ومدير الكلية المذكورة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

في التنقيب عن طبقات الاساليب والتلميح الى محاسنها ومقابحها الى غير ذلك مما يرجع الى صناعة الترسل والانشاء .

من شرائط عبقرية النقد ان لا يكون للناقد أسلوب فما هو الاسلوب ؟ .

قرأت من يومين كتاباً دوّنت فيه أحاديث اناتول فرانس في مجالسه ، قال جامع هذه الاحاديث وهو من الذين كانوا يحضرون مجالس اناتول .

طلبوا الى اناتول ان يقص عليهم قصة رنان مع راهبة الدير في لبنان فقال اناتول : اسمعوا الحديث من فم رنان نفسه ولست أعني بهذا انه حسن القصص ولكنه كان صاحب طريقة خاصة ، فكان يملأ أحاديثه شواهد ويتأوه تأوهات البريتونيين ويتبسم ويدير اباهمه على بطنه ويورم خديه الضخمين في اثناء الحديث ، والخلاصة كان يطبع احاديثه بطابع خاص .

أحب ان استنبط تعريف الاسلوب من هذا الكلام فالأسلوب هو الطابع الخاص الذي يطبع به الكاتب كتابته ، والشاعر شعره ، والقاص قصته ، الاسلوب هو القالب الذي يصب فيه كل واحد منا فكره وعاطفته .

يقول بوفون : الأسلوب انما هو الرجل نفسه ، ومعنى هذا ان الاسلوب انما هو فهم المؤلف وطابع عقله فالاسلوب على هذا الوجه انما هو الشيء الذي يملكه المؤلف ويختص به في اي كتاب من الكتب ، لا يراد بهذا الكلام ان الاسلوب صورة طبع المؤلف او صورة اخلاقه ، وانما المراد به المنهاج الذي ينهجه هذا المؤلف في الافصاح عن فكر يختلج في ذهنه او عاطفة تضطرب في قلبه ، فهو جملة ما يتذرع به المؤلف من الذرائع الى تصوير فكره او تصوير عاطفته .

لنضرب مثلاً للاسلوب ، فلنرجع الى أديب من أدباء العرب ، فلنرجع الى شيخ أدبائنا في القديم وأعني به الجاحظ ، من اساليب الجاحظ انه يلجأ الى أحقر موضوع وهي موضوع أحقر من الكلام على الحاح الذباب ، فيفرغ هذا الفكر في قالب ويطبعه بطابعه الخاص ، واذا هو موضوع يستهوي النفس ويستميل القلب قد استخلص منه حكمة من أروع الحكم ، وهي حكمة اروع من عجز الانسان عن اضعف المخلوقات اي عن الذباب ، فالجاحظ يعظم المعاني الحقيرة فتعظم ، ويحقر المعاني العظيمة فتحقر ، من هذا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

النوع كلامه في كتاب الحيوان على الحاح الذباب على احد قضاة البصرة في ايامه عبدالله ابن سوار ، وصف الجاحظ وقار هذا القاضي فصوره في سطر فقال : لم ير الناس حاكماً قط ضبط من نفسه وملك من حركته مثل الذي ضبط وملك ، ثم وصف جلوس هذا القاضي فصوّره في صورة بناء مبني او صخرة منصوبة فقال : فيأتي مجلسه فيحتبي ولا يتكيء فلا يزال منتصباً لا يتحرك له عضو ولا يلتفت ولا يحل عبوته ولا يحل رجلاً على رجل ولا يعتمد على احد شقيه حتى كأنه بناء مبني او صخرة منصوبة ، ثم أفاض في غير ذلك من دقائق الصفات حتى اذا فرغ من وقار القاضي وجلوسه ومن الحاح الذباب عليه وحركة القاضي في اطباق جفن على جفن والموالاة بين الإطباق والفتح وقع في نفس كل واحد منا انه يستطيع ان يقص هذه القصة باسهل من هذا الكلام ولكنه اذا جمع ذهنه وقلّب نظره في الموضوع وعرض على باله مفردات اللغة وتراكيبها واخذ قلمه ليكتب اتى عليه يومه كله ولم يقل شيئاً .

هذا هو الأسلوب وهذا هو معنى كلامي : الاسلوب ملك المؤلف لا ينازعه فيه منازع ، فالفكر الذي بينه الجاحظ انما هو فكر عام يخطر على بال كل واحد منا ولكن المعرض الذي عرض فيه هذا الفكر انما هو معرض جاحظي لا يقلده فيه مقلد ولا يزاحمه عليه مزاحم قال صاحب كتاب ثقافة الافكار الاستاذ ريمي دي غورمون .

« الكتابة صناعة من الصناعات ولكن الاسلوب ليس من العلم في شيء فاذا قلنا الاسلوب هو الرجل نفسه او اذا قلنا الاسلوب هو شيء مقدس فقولنا واحد ، فالاسلوب خاص بصاحبه وكما ان لكل واحد منا صوتاً خاصاً به او لوناً خاصاً بعينيه فلكل واحد منا أسلوب خاص به ، انك تستطيع ان تتعلم صناعة الكتابة ولكنك لا تستطيع ان تتعلم كيف يكون لك أسلوب فمن الممكن ان تلوّن أسلوبك على نحو خضبك لشعرك ولكنك لزمك ان تستأنف هذا التلوين في كل صباح دون شيء من اللهو ، قد يتعلم المرء قليلاً أن يكون له أسلوب الا انه ينسى في خلال الحياة ما تعلمه ، فالرياضة التي تحسّن سائر المواهب تفسد في بعض الاحايين موهبة الاسلوب .

الكتابة على نحو مايفهمها فلوبر او غونكور انما هي ان تكون شيئاً وان لا تشبه غيرك فالحصول على أسلوب انما هو ان يكون لك في لغة عامة مشتركة لهجة خاصة نسيجة وحدها على ان تكون هذه اللهجة لغة كل الناس ولغة واحد من الناس في وقت معاً .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

لكل واحد منا أسلوب على قدر عاطفته وطبعه وحاله وتربيته وثقافته وبيئته ومزاجه وحسه وتصوره ، فالرجل صاحب النظر الثاقب له أسلوب موجز ، والرجل صاحب الخيال له تعابير مشحونة بالاستعارات والتشبيهات ، والرجل الذي لا نظر له لا تجدون في كلامه وفي تأليفه صلة ما ، ولكل شعب من الشعوب أساليب خاصة فأهل الشرق اصحاب خيال ولذلك ملأوا أساليبهم بالاستعارات وفنون المجاز واهل اثينة شعب مصقول الحواشي رقيق الأطراف فكانت أساليبهم صافية واضحة .

قال جو بر : لكل مؤلف من المؤلفين معجم لغوي وأسلوب فهو يميل الى طائفة من الالفاظ تفصح عن رنات خاصة ولون خاص وشكل خاص و ينزع الى تراكيب تلمس فيها اثر بنانه فله نحوه الخاص وله نوعه الخاص وله مآخره ووساوسه .

رجع بنا القول الى بقية الكلام على الاسلوب من حيث اختصاصه بالرجل فاذا قلنا الاسلوب هو الرجل نفسه فمعنى هذا ان الافكار هي ملك البشر بحذافيرهم وميراثهم يقتبسها من شاء ولكن الاسلوب الذي يصور به الكاتب هذه المعاني هو ملك له لا ينازعه فيه متنازع ، وهنا تظهر براعة البارعين وعبقرية العبقريين ، وهنا يظهر خلود الخالدين فالاشياء تؤثر فينا في الاغلب من نواحي اساليبها اي من نواحي القوالب التي تصب فيها لان للناس افكاراً واحدة بوجه التقريب ولكن الاسلوب هو الذي يفرق بين كاتب وكاتب هذا ما قاله فولتير .

ومن اصحاب هذا الرأي فاكه فمن كلامه : لا يكون الكاتب كبيراً الا اذا اخترع أسلوباً ، يسألون مصوراً عما يريد ان يصوره فيقول : اريد ان أصور فينوز ، لا شك في ان تصوير فينوز ليس فيه شيء من الابداع لان المصور الذي يستعد لذلك ليس باول مصور جال في فكره هذا الموضوع ولكن هذا الامر غير ذي بال اي ليس من الضرورة ان يكون اول مصور خطر بباله تصوير فينوز وانما المهم ان يصور فينوز تصويراً خاصاً به لا يشاركه فيه احد وكذلك فن الكتابة فانه يحتاج الى افكار حديثة وانما الحاجة تمس الى صورة حديثة لهذه الافكار .

ومن كلامه ايضاً في بحث ضافي الحواشي عن هوغو .

هوغو من الخالدين لان الذي يخلد الكاتب انما هو جمال الاسلوب .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ومن اصحاب هذا الرأي اناتول فرانس فقد قال :

اي الرجال يستطيع ان يفخر بانه فكر في امر لم يفكر فيه غيره ، فالاديب يعلم علم اليقين ان الافكار ملك الناس باجمعهم فلا يقدر احد ان يقول: هذا الفكر لي ، الاديب يعلم ان قيمة الفكر بالقالب الذي يفرغ فيه هذا الفكر .

فافراغ فكرة قديمة في قالب حديث هذا هو الفن كله وهذا مايستطيع البشر ابداعه وانشاءه ، ليس الفكر ملكاً لمن يبدعه وانما هو ملك الذي يثبته في اذهان الرجال .

وقال في موضع آخر :

الفن لا يكون موضوعه الحقيقة فالحقيقة تلتمس في العلوم لانها غرض هذه العلوم فلا تلتمس في الادب لان الادب لا موضوع له الا الجمال ولا يمكن ان يكون له الا هذا الموضوع .

هذه آراء كتاب الافرنجة في الاسلوب فلننتقل الى ناحية اقرب منا فلننظر الى ادبائنا انفسهم والى آرائهم في هذا المذهب، قال ابو هلال العسكري صاحب كتاب الصناعتين وكتابه هذا من ابلغ الكتب التي تضمنت قواعد الفن والذوق .

« ليس لاحد من اصناف القائلين غنى عن تناول المعاني ممن تقدمهم والصب على قوالب من سبقهم ولكن عليهم اذا اخذوها ان يكسوها الفاظاً من عندهم و يبرزوها في معارض من تأليفهم ويوردوها في غير حليتها الاولى و يزيدوها في حسن تأليفها وجودة تركيبها وكمال حليتها ومعرضها فاذا فعلوا ذلك فهم احق بها ممن سبق اليها ولولا ان القائل يؤدي ما سمع لما كان في طاقته ان يقول، وانما ينطق الطفل بعد استماعه من البالغين . وقال امير المؤمنين علي بن ابي طالب رضي الله عنه : لولا ان الكلام يعاد لنفد وقال بعضهم : كل شيء ثنيته قصر الا الكلام فانك اذا ثنيته طال .

على ان المعاني مشتركة بين العقلاء فربما وقع المعنى الجيد للسوقي والنبطي والزنجي وانما تتفاضل الناس في الالفاظ ورصفها وتأليفها ونظمها وقد يقع للمتأخر معنى سبقه اليه المتقدم من غير ان يلم به ولكن كما وقع للاول وقع للآخر .

وقال ابن رشيق في العمدة نقلاً عن بعض العلماء .

ان المعاني موجودة في طباع الناس يستوي الجاهل فيها والحاذق ولكن العمل على

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

جودة الالفاظ وحسن السبك وصحة التأليف، الا ترى لو ان رجلاً اراد في المدح تشبيه رجل لما اخطأ ان يشبهه في الجود بالغيث والبحر وفي الاقدام بالاسد وفي المضاء بالسيف وفي العزم بالسيل وفي الحسن بالشمس فان لم يحسن تركيب هذه المعاني في احسن حلاها من اللفظ الجيد الجامع للرقة والجزالة والعذوبة والطلاوة والسهولة لم يكن للمعنى قدر — وبعضهم مثل المعنى بالصورة واللفظ بالكسوة فان لم تقابل الصور الحسناء بما يشاكلها ويليق بها من اللباس فقد بخست حقها وتضاءلت في عين مبصرها .

من هذا كله يتبين لكم ان اكابر الادباء وبلغاء الكتاب قد اجمعوا على فضل الاسلوب فالاعتناء بالاسلوب قديم عهده في الامم فاليونانيون كانوا على هذا المذهب والرومانيون اولعوا الولع كله بجمال الاسلوب حتى افرطوا في هذا الامر فأدى بهم افراطهم الى التقصير في الكتابة الحسنة ، ان للاسلوب سلطاناً لا يقاوم ومما قيمة الكاتب الا اسلوبه ، يقول بعض الادباء اكثر فواجع «شكسبير» لم تكن الا سلسلة استعارات طرست على آثار القصة الاولى التي جاءته ، انه لم يخترع الا شعره وعباراته فالصور التي صورها حديثة وحداثتها هذه هي التي بعثت روحاً في فواجعه ، انظروا الى الشعراء الذين عاشوا في زمن البحتري ثم انظروا الى الذين طواهم فلم يمتد لهم ظل ولم يتسع لهم في العيش البحتري ويموت شعراء وقته لولا الاسلوب ، ان اختراع المعاني محدود ولو لم يكن للمرء اسلوب يختلف به عن غيره لفقد الكلام في العصر الاول من عصور الآداب ولو كان مدار البلاغة على المعاني وحدها لكان الالكن على رأي ابي هلال العسكري بليغاً لانه يفهمنا حاجته بل يلزم ان يكون كل الناس بلغاء حتى الاطفال لان كل واحد منهم لا يعدم ان يدل على غرضه بعجمته اولكنته او ايمائه او اشارته بل لزم ان يكون السنور بليغاً لانا نستدل بضغائه على كثير من ارادته .

هذا هو الرأي الذي اطبقوا عليه وما شذ عنه بعض الناس ولا طعنوا فيه الا لعجزهم عن ان يكون لهم اسلوب حسن ولا يقعن في خلد احدكم ان المراد بالاسلوب مجرد الالفاظ فهذا ظاهر الاحالة لان الالفاظ تدل بطبيعتها على معان فلا ترون الفاظاً من دون معان والذين تجدون لهم اساليب ضخمة ولا تجدون لهم معاني ضخمة هم اصحاب اسلوب اجوف فارغ لانهم لم يحوكوا الكلام على حسب الاماني ولا خاطوا الالفاظ على قدود المعاني .

دمشق : في ٢١ كانون الاول ١٩٢٩

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net